

تعريف علم الأخلاق وصلاته بعلوم أخرى وأهدافه فإذا حاولنا تعريف علم الأخلاق، ولكن المسألة ليست بهذه البساطة لأن كلمة "خلق" وحدها تحتمل معنيين الخلق الحسن والخلق القبيح، ولذا فإننا ننتقل من تعريف الخلق لغوياً إلى تعريف علم الأخلاق وموضوع دراسته. ويمكن تعريف علم الأخلاق من حيث البحث عن المبادئ وترتيبها واستنباطها والكشف عن أهميتها للحياة الأخلاقية، مع بيان الواجبات التي يلتزم بها الإنسان. ومن التعريفات لهذا العلم ما يتجه به نحو سلوك الإنسان بالنظر إلى مثل أعلى حتى يمكن وضع قواعد عامة للسلوك والأفعال تعين على " فعل الخير والابتعاد عن الشر". ومن هذا التعريف نرى أننا في حاجة إلى إيضاح كثير من الموضوعات في المجال الأخلاقي. إن أول مسألة تواجهنا في دراسة الأخلاق هي معرفة الفرق بين الإرادة الخلقية والإرادة الطبيعية، ومنها ما يخصن للقوانين والمبادئ والقواعد إن الحياة الإنسانية الصحيحة لا تبدأ إلا من حيث تنتهي الحياة الحيوانية الصرفة". كما يواجهنا أيضاً النظر في القيم أو المبادئ الخلقية أو المثل العليا. أي على وجه الإجمال، نحن في دراستنا للأخلاق نقف وجهاً لوجه أمام الإنسان الذي يخوض تجربة الحياة الابتدائية بكل ما فيها من خير وشر، ونحاول أن نتعرف على مدى قدرته على اجتياز هذا الطريق أو ذاك. فقد غرس الله تعالى فينا بصائر أخلاقية فطرية، والذي ظهر من دراسة علماء النفس في بحوثهم في سيكولوجية الشعوب أن الأحكام التقديريّة التي يطالب بها الدين. كذلك كشفت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة أن تاريخ الحضارة البشرية مليء بالشائعات الأخلاقية وأنها تتقارب تقارباً شديداً ، وحتى إذا افترضنا وجود اختلافات بينها فإنه ليس هناك ما يمنع ظهور أخلاقية مطلقة ، وهذا يعني أن الأساس الأخلاقي في البشرية فطري، وأن القيم وجودها الذاتي حيث تفرض نفسها على الوجود البشري بطريقة أولية حدسية أما عجز بعض الأشخاص عن إدراك القيم أو التمييز بينها إنما هو "العمى الخلقي" الذي قد يرجع إلى انعدام النضج أو نقص التربية لديهم". وإذا عدنا إلى استعراض التعريف الذي بدأنا به كلامنا، فإننا نجد أنفسنا في حاجة إلى بيان الآتي: 1- صفة علم الأخلاق كعلم معياري وليس علمًا وضعياً. 2- التعريف بالقيم أو المبادئ الأخلاقية. 1) علم الأخلاق علم معياري: اتضحت لنا من التعريفات الآتية لعلم الأخلاق أن النظرة التقليدية له تعدد علمًا معياريًّا أي يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني فيوضع بذلك قوانين الأفعال الإنسانية ومثلها أو المبادئ العليا لها، وكان هذا هو الاتجاه التقليدي "المعتمد بين جمهرة الأخلاقيين" لهم هذا العلم وتحديد منهجه. ولكن مدرسة من علم الاجتماع في فرنسا قد اتجهت بالأخلاق في نهاية القرن الغابر ومطلع القرن الراهن اتجاهًا اجتماعيًّا صورت فيه علم الأخلاق فرعاً من علم الاجتماع موضوعاً ومنهجاً . وقد ذهب أتباع هذه المدرسة إلى اعتبار علم الأخلاق علمًا وضعياً فهدموا بذلك التصور التقليدي له . وأطلقوا عليه اسم "علم العادات" إشارة إلى أن الأخلاق هي دراسة موضوعية تجريبية لقوانين العادات الأخلاقية عند الإنسان. ولكن علم الأخلاق - حتى كعلم عادات - لا يمكن أن يتجرد عن المبادئ والقيم المعنوية التي لا تخضع للتجربة. ومن الثابت تاريخياً أن من المحاولات التي عرضت المبادئ الخلقية للاهتزاز كانت بواسطة السوفياتيين القدماء في بلاد اليونان حيث إنهم في نظرتهم في المعرفة قد اتخذوا من الفرد مقاييساً للأشياء فأصبحت الحقائق ولidea الإحساسات والانطباعات الذاتية الفردية فشكروا في وجود الحقيقة الموضوعية الثابتة. كما امتدت نظرتهم الاستدللية إلى اعتبار علم الأخلاق إلى مجال الأخلاق "فكان الفرد مقياس الخير والشر". وتتفق النظرية السocraticية مع ما ذهب إليه الفلاسفة التقليديون حيث وضعوا الأخلاق ضمن علومهم المعيارية كما أوضحنا - فأصبح موضوع الأخلاق عندهم هو قيمة الخير ، وبهذا التوضيح يظهر الفرق الأساسي بين النظرية الفلسفية التقليدية للأخلاق وبين النظرية الموضوعية أو الوصفية أو التقريرية - التي تبنّاها بعض علماء الاجتماع - حيث أصبحت الأخلاق عندهم هي مجرد "القواعد السلوكية التي تسلم بها فيعية من الناس في حقبة من حقب التاريخ". فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوم التي عرفناها عند مثل سocrates. وربما نشأت المشكلة في ميدان البحث الأخلاقي أن الأخلاق ترفض دافع البحث عن اللذة لذاتها كسلوك أخلاقي، لأن الشعور الخلقي يظهر أن ابتغاء اللذة لابد أن يفضي إلى حالة أليمـة من التشـتـت الروحي والضيـاع النفـسي، أي أن مـساـيـرـةـ الطـبـيـعـةـ منـ حـيـثـ نـشـدانـ اللـذـةـ وـتـجـنـبـ الـأـلـمـ لاـ تـحـقـقـ لـدىـ إـنـسـانـ مـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ الـتـيـ يـسـتـمـدـهاـ منـ مـعـرـفـتـهـ لـقـيمـ وـمـبـادـئـ الـأـخـلـاقـ وـالـمـثـلـ الـعـلـيـاـ . وـفـيـ نـظـرـةـ إـفـيلـيـةـ عـامـةـ لـآـرـاءـ فـلـاسـفـةـ الـأـخـلـاقـ رـأـيـاـ سـقـراـطـ قدـ خـلـعـ عـلـىـ الـأـخـلـاقـ طـابـعـاـ عـقـلـيـاـ لـأـنـهـ عـدـ الـفـضـيـلـةـ عـلـمـ وـالـرـذـلـةـ جـهـلـ، وـكـذـلـكـ اـتـجـهـ كـانـتـ الـفـلـاسـفـةـ الـحـدـيـثـ إـلـىـ اـعـتـارـ الـأـوـامـرـ الـمـطـلـقـةـ فـيـ الـأـخـلـاقـ بـمـنـزلـةـ الـبـدـيـهـيـاتـ فـيـ الـرـيـاضـةـ إـلـىـ الطـبـيـعـةـ . وـمـنـ وـاقـعـ هـذـهـ الـنـظـرـيـاتـ وـغـيرـهـاـ الـتـيـ تـضـعـ الـأـخـلـاقـ فـيـ صـورـةـ مـبـادـئـ وـقـوـانـينـ الـأـخـلـاقـ بـصـورـةـ مـعـيـارـيـةـ تـعـملـ عـلـىـ تـحـدـيدـ الـقـوـاءـدـ كـالـحـالـ فـيـ الـمـنـطـقـ، فـإـنـ الـأـخـلـاقـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ تـصـبـ تـشـرـيـعاـ وـتـحـضـطـلـعـ بـمـهمـةـ الـتـكـالـيفـ وـالـإـلـزـامـ لـبـمـهمـةـ الـعـلـمـ أوـ الـمـعـرـفـةـ . وـفـيـ تـحـرـيفـنـاـ لـمـبـادـئـ نـسـتـطـعـ أـنـ نـقـولـ أـنـ سـوـاءـ كـانـتـ خـاصـةـ بـالـعـلـومـ أـمـ بـالـأـخـلـاقـ فـهـيـ الـقـضـائـاـ الـأـوـلـيـةـ"ـ الـتـيـ تـعـدـ نـقـطةـ بـدـءـ ضـرـورـيـةـ لـكـلـ بـحـثـ كـمـبـادـئـ عـلـمـ الـهـنـدـسـةـ، وـكـمـبـادـئـ الـوـاجـبـ الـمـطـلـقـ فـيـ الـأـخـلـاقـ . وـأـصـبـحـتـ الـمـكـانـةـ الـتـيـ

تتمتع بها هدفًا للهجوم، وذلك نتيجة للملاحظات "التي تقررها فلسفة العلوم بما يتعلق بالتحولات الحديثة في العلوم الرياضية والطبيعية وفي العلوم الأخلاقية والسياسية أيضًا". ومن الخطورة بمكان إنزال القيم أو المبادئ الأخلاقية من محظتها واستهدافها لتأثير النظريات النسبية التي سادت في القرن التاسع عشر، حيث امتدت فكرة الحقائق النسبية إلى ميدان الأخلاق وغلت في القول ونسبتها، وسوت بين العادات الأخلاقية المتغيرة في كل قطر وفي كل أمة وفي كل عصر، وبين القاعدة الأخلاقية الثابتة . نخلص من كل ذلك إلى أن كلمة القيم أو المبادئ تشير إلى معاني الضرورة والكلية والثبات والإطلاق، ولهذا فإننا نحذر من النظر إلى المبادئ الأخلاقية بمفهوم العصر الحاضر في الغرب المتسم بطبع النسبية والمرنة، لأننا إذا أحضنا القيم الأخلاقية إلى قوانين التغير والنسبية فلن ثبت أن نصيب الحقيقة في الصميم (وبالتالي فإنه لن يثبت أن يؤدي إلى بلبلة الرأي العام الأخلاقي) . ينبغي تحرير الفعل الأخلاقي من التقيد بالزمان أو المكان، لأن لا يكون أخلاً على الحقيقة إلا إذا تخلص من الرغبة أو الهوى، والإلزام في القانون الأخلاقي ينبع من ذاته، يقول كاريل "يجب على الإنسان أن يفرض على نفسه قاعدة داخلية حتى يستطيع أن يحتفظ بتوازنه العقلي والعضوى. إن أي دولة قادرة على فرض القانون على الشعب بالقوة، ولكن الإلزام الأخلاقي يختلف عن الحتمية في القانون الوضعي، فهذا الإلزام ينطوي على المسئولية الأخلاقية لأن الأفعال تصدر عنه ككائنات أخلاقية تملك الحرية وهي وثيقة الصلة بالأخلاق . وينبغي أن يدرك كل فرد ضرورة فعل الخير وتجنب فعل الشر وأن يرغم نفسه على اتباع هذا المنهاج ببذل جهد إرادى، فالإلزام هو المحور الذي تدور حوله المشكلة الأخلاقية؛ وهذا فإننا نجد أنفسنا أمام علاقات واضحة محددة تتناول المبادئ الأخلاقية في إطلاقها وثباتها وعموميتها كهدف أسمى يسعى الإنسان لتحقيقه. ودعائم الإلزام التي تشكل عنصر الضرورة لفعل الأخلاقي، ولكننا سرعان ما نصطدم بالمشكلة الأخلاقية، وتتضح أبعاد هذه المشكلة في الإلحاد المستمر الذي يواجه الإنسان في نشاطه الدائم للاختيار بين هذا الفعل أو ذاك، وأضطراره لأن يفرض على نفسه قاعدة معينة للسلوك فيختار الأحسن من بين أوجه التصرف العديدة وأن يتخلص من أثаниته وحقده . فإنه مما لا شك فيه "أن النظر في سلوك الإنسان ينتقل بنا إلى مشاكل جديدة تدخل في نطاق دراستنا من حيث التزامه الخلقي ومسئوليته عن أفعاله التي ترتكز على ركتين أساسيين هما: العقل وحرية الاختيار . إن النظام الأخلاقي يوجهنا - كما يقول دوركايم - نحو السيطرة على النفس بالذات ويعلمنا كيف نسلك على غير ماتريد دوافعنا الباطنة، ولذا فإن كل فعل أخلاقي يتضمن مقاومة نديها لميل معين - وكيناً لشهوة ما - وتقديماً لنزوع خاص . أضفت إلى ذلك أن الإنسان هو الكائن الأخلاقي الذي أعده الله سبحانه لقابلية الارتفاع إلى درجات الكمال بمقتضى روحه التي تمده لبلوغ الغاية المطلوبة وهو يشعر في أعماقه بهذا الصراع الدائم بين روحه المهيأ وبين أخلاط عناصر جزئه الأرضي أي جسده المعرض للسقوط . إن الدور الذي تقوم به الأخلاق هو تجريد هذا العنصر الروحي فترتقي به فوق المستوى الطبيعي ، وهو ما يسميه بارتمني المبدأ الأسّي أو القانون الملزم لنا. فهو بمثابة القانون الملزم الذي ينادي العقل "هو المبدأ الأسّي وفوق الإنساني" . وينذهب بارتمني إلى أننا نشعر في أعماق نفوسنا بصدى هذا القانون ونعجز عن تغييره رغم وحي منافعنا وعمليات شهواتنا. فإن الإرادة على عكس هذا القانون "هي نحن. ومن الصراع الناشب بينها يجد الإنسان أنه يحمل في نفسه ما يشبه القانون أو المحكمة تملك الحق في إصدار الحكم بالإدانة أو البراءة حاسب أنواع سلوكه، إن الأخلاق إن لصيقه بالإرادة، أي صعوداً إلى المستوى الإنساني الرأقي، أو هبوطاً إلى المستوى الحيواني. وكأنه يضمنا بهذا التعريف أمام نفوسنا لكي ننظر فيها ثم نعدل اتجاه إرادتنا لنتحرى فعل الخير وتجنب فعل الشر. وهذا هو هدفنا من دراسة علم الأخلاق. قلنا في البداية إن الخلق في اللغة: هو الحجية والطب والعادة ولكن كلمة "خلق" وحدها لا تعطي معنى الأخلاق الحسنة؛ فكيف نكتسب الأخلاق الحسنة ونتخلص من الأخلاق السيئة؟ فلا يكفي في الدراسة الأخلاقية البحث العلمي في الحياة الخلقة وقوانينها، ولكن يجب أن نهدف إلى الإقناع بأنه في إمكاننا بواسطة الجهد الدائب أن نرتفع بأخلاقنا إلى المستويات الحسنة وأن نتخلص من الأخلاق السيئة، وهذا ما تنبه إليه علماء الإسلام حيث هدفوا إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة بالت��لف والمران. منهم الإمام ابن القيم الذي رأى أن يكون الخلق بالنفس يتم على مراحل ويأتي بالتكيف والتمرن، كالتحلم والتشجع والتكرم وسائر الأخلاق، فإذا تکلفه الإنسان واستدعاه صار سجية وطبعاً مستندًا في ذلك إلى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - "ومن يتصرّب يصبره الله" . ويقول الراغب الأصفهاني: "الإنسان مفظور في أصل الخلقة على أن يصلح أفعاله وأخلاقه وعلى أن يفسدها، وتصبح الدراسة الأخلاقية مساعدة على بذل الجهد الأخلاقي المطلوب، إذا اقتتنعنا بعد البحث والدراسة أن في إمكان الإنسان التخلص من أخلاقه الريءة واكتساب الأخلاق الحسنة، فالعلم لابد أن يقودنا إلى العمل وإلا فلا فائدة فيه إذ الاكتفاء بالعلم دون العمل مضيعة للوقت والجهد. الهدف إذن من علم الأخلاق - كما يحدده ابن مسكونيه "421هـ" أن نحصل لأنفسنا خلًقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة ولا مشقة

ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي . ويشير ابن مسكونيه في عبارته إلى رياضة النفس وتقويمها بالتهذيب والصقل حتى تصير الأخلاق ملكه. ويقول زميلنا الفاضل الدكتور عبد اللطيف العبد "إنه لابد من إعادة بناء شخصية الإنسان المسلم على أساس من القيم الأخلاقية الرفيعة، لا على أساس المنهج المادي وحده، ولتحقيق ذلك لابد من معرفتنا بأنفسنا والوقوف على المعركة الدائرة فيها بين الإرادة والغرائز. مهما تعددت النظريات الأخلاقية وتبaint الفلسفات التي تعالج المشكلات الأخلاقية فإنها تتفق على موضوع واحد تتخذه منه أساساً لأبحاثها وهو الإنسان بعامة والإرادة الإنسانية بخاصة إذ أن الأخلاق تدور على ماهية الإنسان فهي تعد بالبحث في عواطفه وغرايئه وانفعالاته وميوله و حاجات أساسية يتفق فيها مع الحيوان، ولا يعنيها في الدراسة الأخلاقية كما قلنا العلوم والمعارف، ولهذا قلنا إن هذه الإرادة هي مركز الدائرة في المعمظـ إن لم يكن كافة مذاهب المفكرين الأخلاقيين والفلسفـ لأن علم الأخـ يتناول دراسة أفعال الناس بالقياس إلى مثل أعلى . فلا الروح ولا الجسم يمكن أن يفحص كل منها على حدة – إذ يتكون الإنسان من جميع وجوه نشاطـ الفعلـية والمحتمـة، والواقعـ أن كل عصر وكل مجتمعـ إـنا يضعـان تحت "مفهومـ الإنسانـ هذاـ العـصرـ أوـ هـذاـ المـجـتمـعـ لاـ "الـإـنـسـانـ المـطلـقـ" أوـ "الـإـنـسـانـ بـصـفـةـ عـامـةـ. فـإنـ منـ الحـقـ أيـضاـ كـماـ يـقولـ "دورـ كـاـيمـ إنـ الرـجـلـ الأـورـبـيـ فـيـ أـيـامـناـ هـذـهـ ماـ يـزالـ يـعـتـقـدـ أـنـ الإـنـسـانـ هوـ عـلـىـ وجـهـ التـحـديـ "إـنـسـانـ هـذـاـ المـجـتمـعـ الغـربـ المـسيـحـيـ". وهذهـ النـظـرةـ تـفـسـرـ لـنـاـ اـخـتـلـافـ الـفـلـاسـفـةـ وـعـلـمـاءـ الـأـخـلـاقـ فـيـ مـعـالـجـتـهـ لـمـسـائـ الـأـخـلـاقـ، عـلـىـ أـنـ الـاـكـتـفـاءـ بـوـصـفـ الـإـنـسـانـ بـأـنـ كـائـنـ نـاطـقـ روـحـيـ شـاعـرـ بـذـاتـهـ، قـدـ يـصـلـحـ فـيـ مـجـالـ دـرـاسـةـ عـلـمـ النـفـسـ الـذـيـ يـعـنـىـ بـدـرـاسـةـ الـإـنـسـانـ مـنـ النـاحـيـةـ الـنـفـسـيـةـ أوـ الـعـقـلـيـةـ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـعـطـيـنـاـ المـدـلـولـ الرـئـيـسيـ فـيـ مـجـالـ الـأـخـلـقـ؛ وـتـظـهـرـ الـمـسـؤـلـيـةـ الـأـخـلـاقـيـةـ بـوـضـوـحـ إـذـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ رـكـنـيـهـ الرـئـيـسـيـنـ وـهـمـاـ كـمـ بـيـنـاـ مـنـ قـبـلـ الـعـقـلـ وـحـرـيـةـ الـاـخـتـيـارـ، وـمـاـ دـامـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ فـإـنـ الـبـحـثـ فـيـ مـجـالـ الـأـخـلـقـ لـهـ صـلـةـ وـثـيقـةـ بـالـتـرـبـيـةـ. صـلـةـ الـأـخـلـقـ بـالـتـرـبـيـةـ: وـتـظـهـرـ الـوـظـيـفـةـ الـأـوـلـىـ لـلـمـرـبـيـ فـيـ الـعـلـمـ عـلـىـ تـفـتـيـحـ ذـهـنـ الـحـدـثـ أـوـ الشـابـ لـلـقـيـمـ الـخـلـقـيـةـ. وـتـظـهـرـ التـرـبـيـةـ وـلـلـإـنـسـانـيـةـ الـكـاملـ إـذـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ اـحـتـيـاجـاتـ وـلـلـإـنـسـانـيـةـ الـمـتـعـدـدـ وـمـوـاهـبـهـ الـمـتـنـوـعـةـ وـأـحـطـنـاـ بـقـوـاهـ وـمـلـكـاتـهـ جـمـيعـهـاـ لـكـيـ نـتـعـهـدـهـ بـالـتـنـمـيـةـ وـالتـقـوـيـةـ. وـالـتـرـبـيـةـ الـأـدـبـيـةـ الـتـيـ تـعـهـدـهـ الـلـسـانـ وـتـقـومـهـ وـتـصـلـحـ بـيـانـهـ، وـالـتـرـبـيـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـهـدـفـهـ تـنـمـيـةـ رـوـحـ الـإـيـثارـ وـالـغـيـرـةـ ضـدـ الـأـنـانـيـةـ وـالـتـعـرـيـفـ بـالـنـظـمـ وـالـقـوـانـيـنـ السـائـدـةـ بـالـمـجـتمـعـ، وـهـنـاكـ أـيـضاـ الـتـرـبـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ لـتوـسيـعـ الـأـفـقـ وـالتـنـبـيـهـ إـلـىـ الـأـخـوـةـ الـعـالـمـيـةـ. وـالـتـرـبـيـةـ الـدـينـيـةـ لـلـتـسـاميـ بـالـرـوـحـ إـلـىـ الـأـفـقـ الـأـعـلـىـ بـإـطـلـاقـ. وـتـأـتـيـ الـتـرـبـيـةـ الـخـلـقـيـةـ لـلـتـوجـيـهـ الـمـسـتـمـرـ لـلـعـلـمـ عـلـىـ سـنـنـ الـاستـقـاماـتـ حـتـىـ تـتـكـونـ الـعـادـاتـ الصـالـحةـ وـالـأـخـلـقـ الـحـمـيدـ الـراـسـخـةـ. وـمـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ الـتـرـبـيـةـ الـخـلـقـيـةـ هـيـ السـيـاجـ الـتـيـ تـحـيطـ بـأـلـوـانـ الـتـرـبـيـةـ جـمـيعـاـ، فـمـنـ وـاجـبـ الـفـنانـ مـرـاعـاـتـ قـانـونـ الـحـشـمـةـ وـالـلـيـاقـةـ وـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ سـتـرـ الـحـيـاءـ وـالـعـفـافـ، وـهـكـنـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـخـضـ سـائـرـ أـلـوـانـ الـتـرـبـيـةـ فـيـ وـسـائـلـهـاـ وـأـسـالـيـبـهـاـ وـبـوـاعـثـهـاـ لـقـوـاعـدـ الـآـدـابـ وـأـنـ نـقـيـسـ ذـلـكـ كـلـهـ بـمـقـايـيسـ الـفـضـيـلـةـ. وـتـحـتـاجـ الـتـرـبـيـةـ الـخـلـقـيـةـ إـلـىـ أـنـوـاعـ مـنـ الـتـعـبـ وـالـصـبـرـ وـطـولـ الـمـرـاـنـةـ لـتـكـوـينـ الـمـلـكـةـ الـخـلـقـيـةـ حـتـىـ يـصـبـحـ السـلـوكـ الـأـخـلـاقـيـ عـمـلاـ اـبـعـاثـيـاـ مـحـبـبـاـ إـلـىـ الـقـلـبـ. أـمـاـ الـكـسـالـيـ الـضـعـفـاءـ فـلـاـ تـكـوـنـ لـدـيـمـ الـمـلـكـاتـ، كـذـلـكـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـغـفـلـ بـيـانـ الـصـلـةـ الـوـثـيقـةـ بـيـنـ الـأـخـلـقـ وـالـدـينـ كـمـصـدرـ رـئـيـسيـ لـقـدـسـيـةـ الـقـوـانـيـنـ الـأـخـلـاقـيـةـ وـدـافـعـ قـويـ لـلـإـنـسـانـ إـلـىـ الـأـعـمـالـ الـخـيـرـةـ. صـلـةـ الـأـخـلـقـ بـالـدـينـ: هـنـاكـ تـعـرـيـفـاتـ مـخـتـلـفةـ لـلـدـينـ بـوـجـهـ عـامـ، وـصـتـ أـعـمـالـ عـبـودـيـةـ تـتـعـلـقـ بـالـلـهـ" أـوـ أـنـهـ نـظـامـ اـجـتمـاعـيـ لـطـائـفـةـ مـنـ النـاسـ يـؤـلـفـ بـيـنـهـ إـقـامـةـ شـعـائـرـ مـوـقـوتـةـ، وـتـعـبـدـ بـعـضـ الـصـلـوـاتـ وـإـيمـانـ بـأـمـرـ نـحوـ الـكـمالـ الـذـاتـيـ الـمـطـلـقـ وـإـيمـانـ بـاتـصالـ الـإـنـسـانـ بـقـوـةـ روـحـانـيـةـ أـسـمـيـ هـيـ اللـهـ الـواـحـدـ، وـإـلـىـ الـخـلـقـ باـعـتـيـارـهـ قـوـةـ النـزـوـعـ إـلـىـ فـعـلـ الـخـيـرـ وـضـبـطـ الـنـفـسـ عنـ الـهـوـيـ، كـانـ الـقـانـونـ الـأـخـلـاقـيـ الـكـامـلـ هـوـ الـذـيـ يـرـسـمـ طـرـيـقـ الـمـعـاـلـمـةـ الـإـلـهـيـةـ كـمـ يـرـسـمـ طـرـيـقـ الـمـعـاـلـمـةـ الـإـنـسـانـيـةـ. بـلـ مـصـدرـ حـكـمـ وـتـشـرـيـعـ فـيـ الـوـقـتـ نـفـسـهـ، كـانـ الـقـانـونـ الـدـينـيـ الـكـامـلـ هـوـ الـذـيـ لـاـ يـقـفـ عـنـ وـصـفـهـ الـحـقـائـقـ الـعـلـيـاـ الـنـظـرـيـةـ وـإـغـراءـ الـنـفـسـ بـحـبـهاـ وـتـقـدـيسـهـاـ، بـلـ يـمـتدـ إـلـىـ وـجـوهـ النـشـاطـ الـمـخـلـفـةـ فـيـ الـحـيـاةـ الـعـمـلـيـةـ فـيـضـعـ لـهـ الـمـنـاهـجـ السـوـيـ الـذـيـ يـجـبـ أـنـ يـسـيرـ عـلـيـهـ الـفـردـ وـالـجـمـاعـةـ. وـهـكـنـاـ يـصـلـ الـقـانـونـ الـدـينـيـ إـذـ اـسـتـكـمـلـ عـنـاصـرـهـ إـلـىـ بـسـطـ جـنـاحـيـهـ عـلـىـ الـأـخـلـقـ كـلـهـ، بـلـ عـلـىـ سـائـرـ الـقـوـانـيـنـ الـمـنـظـمةـ لـعـلـاـقـاتـ الـأـفـرـادـ وـالـشـعـوبـ بـحـيـثـ يـجـعـلـهـ جـزـءـ مـتـمـمـاـ لـحـقـيـقـتـهـ وـيـصـبـعـ كـلـ قـوـاعـدـهـ بـصـبـغـتـهـ الـقـدـسـيـةـ. وـالـعـقـيـدـةـ باـعـتـارـهـاـ الـمـصـدرـ الرـئـيـسيـ لـلـإـحـسـاسـ بـقـدـسـيـةـ الـقـوـانـيـنـ الـأـخـلـاقـيـةـ هـيـ أـكـبـرـ دـافـعـ يـدـفعـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ الـأـعـمـالـ إـلـيـةـ الـخـيـرـ وـأـقـوىـ رـادـعـ يـكـفـهـ عـنـ اـتـيـاعـ الـهـوـيـ. ذـلـكـ لـأـنـ الـقـانـونـ لـاـ يـكـفـيـ وـحدـهـ لـضـبـطـ الـسـلـوكـ الـإـنـسـانـيـ. وـيـذـهـبـ الـفـيلـسـوـفـ الـأـلـمـانـيـ فـيـخـتـهـ إـلـىـ أـنـ الـأـخـلـقـ مـنـ غـيرـ دـينـ عـبـثـ، وـبـالـمـثـلـ يـضـعـ غـانـديـ الـدـينـ وـمـكـارـمـ الـأـخـلـقـ فـيـ مـرـتـبةـ وـاحـدةـ لـاـ يـقـبـلـ الـانـفـصـالـ، بـلـ يـرـىـ أـنـ الـدـينـ يـغـذـيـ الـأـخـلـقـ وـيـنـمـيـهـ كـمـاـ أـنـ الـمـاءـ يـغـذـيـ الـزـرـعـ وـيـنـمـيـهـ. فـخـرـجـ مـنـهـاـ بـنـتـيـجـةـ مـهـمـةـ أـعـلـنـهـ فـيـ قـوـلـهـ "بـدـونـ الـدـينـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ هـنـاكـ أـخـلـقـ وـبـدـونـ أـخـلـقـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـوـنـ هـنـاكـ قـانـونـ". وـدـورـ الـدـينـ فـيـ تـرـبـيـةـ الـأـفـرـادـ لـاـ يـقـلـ شـأـنـاـ عـنـهـ فـيـ تـرـبـيـةـ الـجـمـاعـاتـ وـالـأـمـمـ، فـلـاـ تـغـيـرـ الـعـلـمـ وـالـقـوـانـيـنـ عـنـ الـتـرـبـيـةـ وـالـتـهـذـيبـ الـدـينـيـ لـأـنـ الـعـلـمـ سـلاحـ ذـوـ حـدـينـ، وـلـابـدـ لـهـ مـنـ رـقـبـ أـخـلـقـيـ عـنـ دـسـخـادـمـهـ لـكـيـ يـوـجـهـ

إلى خير الإنسانية – لا لدمارها ونشر الشر والفساد في ربوع الأرض، وليس أدل على ذلك من الأقوال التي نسوقها لبعض أقطاب العلم والزعماء وقادة الحرب في العالم الغربي نفسه. يقول روبرت ميلكين العالم الطبيعي الأمريكي "إن أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق. ولقد كان زوال هذا الإيمان سبباً للحرب العامة وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة، إذ لن يستطيعوا المثابرة على البقاء بماديتها" وأنها لا يمكن أن تنجو إذا سرى الروح الديني في جميع مسامها.

أن أهم عوامل الانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقي موقناً بأن الجيش إذا سار على غير مرضاه الله سار على غير هدى، وحث جنوده بالانتصار على أنفاسهم قبل العدو. وهو نفس الهدف الذي رمى إليه المارشال بيتان عقب توقيعه الهدنة إثر هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية من النداء الذي وجهه إلى أمته قال فيه: "إنني أدعوكم أول كل شيء إلى نهوض أخلاقي". إن العقيدة الدينية إذن تجعل للأخلاق فعالية وإيجابية مؤثرة، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد يستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية . وخير دليل يبرهن على هذا الرأي ما يسجله لنا التاريخ الإسلامي من عجائب الانقياد والطاعة للأوامر الإلهية التي كان المسلمون يصدعون بها حال التبليغ بها، ومنها ما حديث عند نزول النبي عن الخمر "فعن أبي بريدة عن أبيه قال - بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلاً، يتلو الرجل على امرأته وأبنته وأخته وعلى كل ذات قرابة فما منهم امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتبرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتاب، وما أحوجنا إذا أردنا استعادة أمجادنا من جديد إلى الانقياد لأوامر شرع الله تعالى كما فعلت أجيال المسلمين من قبل إبان ازدهار حضارتنا الإسلامية، لا سيما إذا علمنا - كما بينا توأ - أن الأخلاق هي الركن المكين للحضارات والأمم. عندئذ تأتي مناسبة طرح الصلة بين الأخلاق والحضارة، على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقياً. ويرى أن طابع الحضارة أخلاقي في أساسه، فهناك إذن ارتباط بين الحضارة ونظرتنا إلى الكون وإلى الحياة، فإن المعتقدات - لا الإنجازات التكنولوجية - هي القوة الدافعة للحضارة . ومفرد اهتمامه بالمعنى والغرض يرجع إلى أنه بافتقدان النظرة الكونية، ويرى أن مأساة الإنسان المعاصر هي تضاؤل الحرية والقدرة على التفكير وأن بداية كل حياة روحية ذات قيمة هي بالإيمان بالشجاع بالحق والقول به صراحة مقترباً تخصيص ثلاث دقائق كل مساء للنظر في السماء المرصعة بما لا نهاية له من النجوم تمهدأً لإصلاح الأحوال التي نعيش فيها اليوم. وعلى أية حال فإنه عبر عن فطرته في حاجة الإنسان الماسة إلى التفكير في أوقات متقاربة - كما ينبغي للمسلم أن يفعل "لا ثلاث دقائق فحسب كل مساء" ليتحرر من آلية الحياة الاجتماعية ويراجع نفسه ويجد نشاطه الذهني ليظل متيقظاً ومدركاً لمعنى الحياة والنشأة والغاية، 2- هز الناس في هذا العصر ودفعهم إلى التفكير الأولى في حقيقة الإنسان ومكانته في العالم، لأن الكمال الروحي والأخلاقي للفرد هو الغاية القصوى من الحضارة . منطلقاً بها انطلاقاً مادية هائلة أثرت على السواد الأعظم من الكتل البشرية في القرن العشرين، في فقدان السمو فوق المادية وتمكن المادية المبتدلة لدى الإنسان الغير المرتبط بواعز يزعه "والذي يتخذ من عالم أحاسيسه المادية مقياسها لكل شيء"، ولكن لم تصل إلى حد التطوير العقيم غير القويم الذي انتهى إليه العالم الغربي، معللاً ذلك بأن دروع المقاومة للعالم الإسلامي تمثلت في الاستمساك بالفضيلة والأخلاق الحميدة بالرغم من ظواهر التدهور. فقد أخذت الأزمات بخناقها . أنه دين يدعو للفضيلة والأخلاق الحميدة بينما يعرف من خبراته السابقة عن مجتمعات الغرب أن الغربي يرى التحلی بالفضيلة والالتزام الخلقي، وسنمضي في بحثنا في الفصل التالي لعرض مذاهب الأخلاق عند بعض فلاسفة اليونان وبيان أوجه القصور فيها.